الفصل الثامن

العصر العباسى

وصف الخمر والسقاة

انطلق كثير من الشعراء فى هذا العصر إلى الشراب فى الأديرة والحانات والقصور ، فى مجالس عامة أو خاصة ، ووصفوا الخمر والسقاة والكؤوس ، وأصوات المغنين والمغنيات ، وهم يمتعون النظر بالراقصات من قينات أو جوار ، حتى لم يخل ديوان شاعر فى هذه الأزمنة من وصفها سواء شربها أم لم يشربها ، فقد أصبح وصفها فنًّا من الفنون لا يجوز للشاعر إغفاله أو القعود عن التسابق فيه . وكأن القول فى الخمر لم يكن يضير صاحبه أو يكلفه عنتاً ، فقد نقلت كتب الأدب أن الوزراء والأمراء وبعض الخلفاء أقاموا مجالس لشربها أو وصف ما يدور فيها ، ولذلك كثر الشعر فى الخمر والشراب وتقلبت عليها الأسماء وتنوعت ، فهى قهوة ومدامة وسبيئة ومشعشعة وصرف وعقار ومصفق وكميت وصهباء وسلافة وعانية و . . إلى ما لا نستطيع حصره . وكثرت كذلك آلات الشراب وتنوعت أسماؤها حتى خصت بها كتب فى شربها وفى النديم كما فعل كشاجم وابن المعتز والسرى الرفاء ؛ والشابشتى فى كتابه الديارات رسم الشاربين والعابثين فى هذه الأماكن .

ولعلنا نستنتج من شعرهم أنهم يحبونها عتيقة أزلية ، فيقول أبو نواس : تفانى جسمها والروح باق ، ويقول ابن المعتز إن الناس أسكنوها الدنان من عهد عاد

وأن الدهر أكل ما تجسم منها وأبقى لبانها المكنون ، ويصورون فضّ ختامها كأنه اللهب أو توقد المريخ فى الظلماء ، قال الصنوبرى فى ذلك :

وأمطر الكأس ماء من أبارقه فأنبت الدر فى أرض من الذهب
وسبح القومُ لما أن رأوا عجباً نوراً من الماء فى نار من اللهب

ووصف والبة بن الحباب إبريقها فقال :

إبريقنا مصلٌّ يضحك فى صلاته
يكب ثم يُقعى كالظبى فى فلاته
يمجّ كل شىء يمرّ فى لهاته

فلم يتورع عن إدخال الصلاة وألفاظها فى وصف إبريقه ، ورسمه كالظبى يكب ويقعى. ووصف الشاعر البسامى إبريقه ضاحكاً باكياً كإنسان حزين فرح ملثم بالقز أو متشح به ، وصوّر الشرب حولها فقال :

ترى أباريقهم مفدّمة يعلهما الفتية المغاوير
كالطير حامت على شرائعها فابتل من وردها المناقير

وهى صورة حلوة تجعل الشاربين من الخمر كالطير تحوم حول الورد فتبل مناقيرها . وتعرض الشعراء للون الخمر فجعلها ابن المعتز كالذهب :

وخمارة من بنات المجوس ترى الزق فى بيتها شائلا
وزنّا لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائلا

والخمارة فى العصر العباسى تكون رومية ومجوسية وفارسية ، وتكلف مالا طائلا كما رأينا فى العصر الجاهلى سواء بسواء . وحيناً ترى لون الخمر أصفر زعفرانياً إذا تأملتها حسبتها فى ثوب كافور ، وحسبت الطل بينها كدمع تحدر من أجفان مهجور كما قال ابن المعتز .

وأبو نواس يراها صفراء كذلك لا تنزل الأحزان ساحتها، لو مست حجراً لأصابه سرور فكيف إذا شربها الإنسان؟ ! وأما رائحتها فهى كالعنبر أو

المسحوق الهندى من المسك قال فيها البحترى :

ولها نسيم كالرياض تنفست في أوجه الأرواح والأنداء
وفواقع مثل الدموع ترددت في صحن خد الكاعب الحسناء

ومسلم بن الوليد يصفها صاحبة كعين الديك لا تقبل القذى ، ويمزجها ابن المعتز كالقدماء بماء السحاب فيرى في وجهها نسيج الدروع :

قهوة زوجت بمـــاء سحـــاب فكسا وجهها نقاب حباب
مثل نسج الدروع أو مثل ميا ت تدانت به سطور الكتاب
وتراها في كأسها مثل شمس طلعت في ملاءة من سراب
فإذا صادفت فؤاداً خلياً لم تدعه فرداً بلا أحباب

إنها خمر ابن المعتز قد زوجت بماء السحاب فاكتست من الحباب بنقاب وأصبحت مثل ميات في كتاب ، فهى شمس في الكأس طلعت في ملاءة من سراب. والشاعر يجد الماء كالفضة لها حلق بيض تحل وتعقد .

وشبهها البحترى في رقتها بلفظ الصب يشكو حرارة الوجد . وكشاجم يراها تحول الحليم سفيهاً .

لستُ أدرى لرقة وصفـــاء هى في كأسهـــا أم الكأس فيها ؟ !

فهو يصف الكأس في صفاء ورقة يحبهما الشعراء كالصنوبرى وابن المعتز ويقول فيها البحترى :

لبست زرقة الزجاج فجاءت ذهباً يستنير في لازورد

وكلهم في تشبيهها بالشمس أو بالنور والذهب أو اللازورد ، يستعيرون من الطبيعة والأفلاك ويجعلون ألوانها صافية مشرقة . وأبو نواس يخترع لها أوصافاً عجيبة لشدة محبته لها وعكوفه عليها ، فيجعلها كمصباح المساء .

وابن الرومى يصف الشارب في لطف ورقة وبلاغة فيقول :

أبصرته والكأس بين فم منـــه وبين أنامل خمس

فكأنه والكأس فى فـــه قمر يقبـــل عارض الشمس

وهذه الصورة أعجبت القدماء ووقفت فى صفحات كتبهم تعبر عن البلاغة المثلى والفصاحة العليا . وقد كلف بها الشعراء لأنها تزيل الهم وتشفى الداء ؛ وابن المعتز شرب بالكبير و بالصغير من كؤوسها لا يحفل بأحداث الدهور ويرى أن خيل الملاهى يجب أن تركض به وأن يطير بأجنحة السرور ، فإذا ما استقرت فى قلب فتى نسى لوعة الكدر فيقول :

خليلىّ اتركا قول النصيح وقوما وامزجا راحاً بروح
فقد نشر الصباح رداء نور وهبت بالندى أنفاس ريح
وحان ركوع إبريق لكأس ونادى الديك : حى على الصبوح
وحنّ الناى من طرب وطيب إلى ناى يكلمه فصيح
هل الدنيـــا سوى هذا وهذا وساق لا يفارقنا مليح

فهو حين يجتمع له الخمر يرى أن يجتمع الناى المطرب والساقى المليح ! فالدنيا فى خير وسرور ، وليست مليحة إلا بهذا الشرب وهذا الطرب .

ووصف الشعراء كذلك ما تبعث الخمرة فى العين والخد من حمرة قانية ، وعينوا أوقات شربها حين تتسابق السحب والأمطار والغيوم فى سماء الطبيعة ، وتنعقد ألوان قوس قزح فى الأفق ، فالشمس مريضة وكأن الحجب مدّت عليها ثياباً ، والطير مشغولة تتطارح صنوف الغناء . وكثير منهم يستحبّ أن يشربها والثلج يتساقط فتشيب الأرض وينتشر العبير ، كما فعل أبو فراس الحمدانى وكشاجم .

وقد قال الصنوبرى يصف الطبيعة وهو يشرب :

الجو بين مضمخ ومضرج والروض بين مزخرف ومدبج
والثلج يهطل كالنثار فقم بنـــا نلهو بربة كرمة لم تمزج

وأحب شربها آخرون بقرب النار فرأى فى ذلك اجتماع نار الراح ونار الخد ونار

الحشا فى الصب . والصنوبرى يصيح بغلامه أن يجلب الكانون وأن يوقد النار ، وكذلك فعل كشاجم . وشربها بعضهم على الرياحين فى شباب النهار واستمع إلى غناء الطير والنسيم يهب والشمس كدينار مجلو . وشربها غيره فى الليل والديك لم ينتبه كأنه سكران يغط فى نومه ؛ والليل كشعر الحسناء والخمر كخديها والشارب من ذلك فى ليلين : شعر الحسناء والدجى ، وفى صبحين : كأسها ووجهها .

وهكذا نرى أن الشعراء اختلفوا فى وقت شربها ، ولم يختلفوا فى أثرها وفى فائدتها ، واتفقوا على أن يكون خلال الشرب عيد الطبيعة ، يمتزج الغناء بالرقص . والجو والشمس والسحاب والمطر كأنها تشترك فى جلاء العيد وفى زينة المجلس !

السقاة ومجالس الشرب

وأما الساقى فيجب أن يكون عند أبى نواس مستعيراً خلق جارية ، فالدر مضحكه والقوس حاجبه والسهم عيناه والأشفار أرماح ، وفى رأى غيره يكون أحور قد تخضبت يداه من الكأس وماس بأعطافه كالخيزران ، وعند ذاك يسقى بعينيه ويديه . وابن المعتز يشرب من كف شادن يشكو لحظه السقام ، فكأن السلاف من ماء خده وكأن العنقود يقطف من شعره الجعد ؛ والبحترى يعتصر الخمر كذلك من خد ساقيه الشادن . وابن المعتز يصف السقاة وصفاً طريفاً جميلا حين يقول :

وكأن السقاة بين الندامى ألفات من السطور قيام

وأما الصنوبرى فيريد ساقيه لطيف الممنطق ثقيل المؤزر مرتج الكفل غنج العين ، من نسل الدهاقين فى الفرس ، فله عز السلاطين وللشاعر حين ذاك ذل المساكين ! فهو يتحكم فى الشاعر كأنه يسحره أو يرقيه .

فالساقى عندهم محبوب معشوق له جمال وفتنة وسحر يتغزلون به ويجدون

عنده لذتهم وهناءتهم . وفى القرن الثالث استحب كثير من الشعراء أن يكون ساقيه ملتحياً بعقرب صدغه . ولن نعرض لأوصاف الغلمان والسقاة فهى كثيرة تجدها فى كتب الأدب ، ذكرنا منها فى كتاب الغزل ما سمحت به الصفحات هناك ، وصورنا ما كان الغزلون يستحبون من هؤلاء الغلمان .

ويسعى الشعراء إلى أن يكون جلاسهم وندمانهم فى طيب الخلق والخلق ولا تطيب الراح عندهم إلا بطيب العصابة كلها لئلا يحفظوا على السكران زلته ، وهم يحبون أن يجتمع الشرب والطرب فتعمل المزاهر والنايات والعيدان وتجول القينات وتصول ، كما قال أحدهم فى وصف ذلك :

ورنت على النايات أوتار قينة   تشوّق فتياناً إلى فتيات !

ويجب أن تكون القينة مشرقة الوجه معشوقة الألحاظ والغنج ، تعزف على الآلات وتطرب الأسماع ، فتدغدغ العود وتعرك أذنه . وقد وصف الشعراء فى مجالس الشراب المغنين والمغنيات ، فأبدع ابن الرومى فى وصف ذلك وخاصة فيما كان لوصف وحيد المغنية ، إذ رسم صوتها وهدوءها فقال :

فتراه يموت طوراً ويحيا   مستلذ بسيطه والنشيد

فيه وشى وفيه حلى من النغ   م مصوغ يختال فيه القصيد

واستطرد الشعراء من ذلك إلى وصف آلات الطرب كالناى والعود ، كما فعل الوأواء الدمشقى وكشاجم والصنوبرى والسرى الرفاء .

وإذا كانت الخمر معتقة والأبريق جميلا ، والوقت مواتياً والساق فاتناً ، وسار الطرب وتحركت الموسيقا فأن دبيب الخمر فى العظام يسرى كأنه النعاس قد أخذ بالمتاصل ، فهو يشرب الخمر ولكنها تشرب عقله خبلا ، ويسلم روحه للراح ويميل رأسه على الكأس ويتلعثم اللسان وتقول الجوارى إنه رجل من الأحرار صرعته الشفاه بالكأس والطاس . ويرى السكران فى الناس سقاة وفى الأشياء كئوساً كما قال أبو نواس ، ومع ذلك يستزيدون منها ، ويستشفون

بها ، ويجدون بها الدواء لكل داء ؛ ويقول الحسين بن الضحاك :

أعود إليها ومولى بهـــا كما تجرح الحرب أبطالها

وهكذا رأينا أن العباسيين شربوا كما شرب الجاهليون وكما شرب من قبلهم من أمم خلال القرون ، حتى قيل إن إبليس عصر الخمر لقابيل وأولاده ! ونقل كذلك أن آدم أول من غرس الكرم ، ونسجت كتب الأدب حول ذلك أسطورة تقول إن الخمر ولدت معها الخيلاء والزهو والمرح والرقص والعربدة ثم الانعقاص ، وذلك منذ الأبد حتى اليوم ، والشعراء رافقوا الأسطورة فكانوا ضحايا اللهب وشهود المعركة ؛ كما كان اليونان قبلهم والفرس ، ولكنهم لم يصنعوا للخمر آلهة كما فعل أولئك ، وإنما اكتفوا بصحبتها وحبها على الزمان ، فرسموها كما رسموا الحبيب والمعشوق ، وخلفوا فيها صوراً خالدة تفوق ما كان للشعر الغربيّ فى رسمها ووصفها .